

II

الطرق الصوفية في شمال القوقاز

شانتال لومرسييه كيلكوجيه

إن شمال القوقاز اليوم هو تلك المنطقة من الاتحاد السوفياتي - وربما من العالم أجمع - حيث جذور الطرق الصوفية الأكثر ثباتاً، وحيث تضطلع الطرق بالدور الأكبر في الحياة الاجتماعية، بل الحياة السياسية للجماعة الإسلامية. علماً أن دخول الطرق هذه البلاد، ظاهرة حديثة نسبياً، كونها تعود إلى أواخر القرن الثامن عشر، وإن توزعها الجغرافي الحالي يرتبط بعاملين تاريخيين:

١ - بنية المجتمع الاسلامي: في القرن التاسع عشر لقيت الصوفية قبولاً لدى الجماعات المسماة «ديموقراطية»، وهي الجماعات التي تولت دوراً نشطاً في «الحرب المقدسة» ضد الروس، والتي ظلت البنية العشائرية مستمرة فيها (ولا تزال محفوظة حتى الآن): عند التشيشي، والانغوش، وداغستاني الجبل، وبعض قبائل الشركس. في المقابل، رُفضت الصوفية من الجماعات التي تركز على بنية اقطاعية: الكاباردا، والديغور (الأوسيت المسلمون)، والكوميك، والقبائل الشركسية المسماة «اريسوقراطية» (كان دورها ضعيفاً في الحرب المقدسة أو أخذت طوعاً جانب الكافرين).

٢ - هجرة السكان المسلمين عقب اندحار الحرب المقدسة (للامام) شامل: طاولت الهجرة في صورة خاصة القبائل الشركسية «الديموقراطية» للجزء الغربي من القوقاز التي اختفت الصوفية منها كلياً.

ثمة طريقتان في شمال القوقاز هما: النقشبندية التي ظهرت أواخر القرن

الثامن عشر، خصوصاً في داغستان، وفي بلاد التشيتشي؛ والقادرية التي ظهرت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، والتي نفع عليها في جمهورية تشيتشينا - انغوش مع بعض الوجود المتفرق في شمال داغستان. ولكل من الطريقتين تقاطيع اجتماعية وسياسية متميزة تماماً، ومختلفة جداً أيضاً عن الطرق في آسيا الوسطى السوفياتية - والطرق الصوفية في القوقاز هي منظمات سرية مجاهدة رفيعة «التسييس»، ولبعض الفروع كل السمات الخاصة بحزب سياسي سري.

I - التاريخ والتموضع :

١ - النقشبندية :

استناداً إلى التقليد الشفوي الشائع في بلاد التشيتشي وداغستان، كان أول شيخ نقشبندي دعا إلى الجهاد المقدس ضد الروس داعياً تشيتشي من قرية آلدني اسمه منصور اوشورما. ويبدو أن مكاشفته بأسرار الطريقة تمت بحسب البعض في بخاري (الرواية مشكوك فيها)، وفي مكان ما من تركيا بحسب البعض الآخر (وهذه مشكوك فيها أيضاً)، أو في القوقاز نفسها على يدي نقشبندي بخاري ذاهب إلى مكة وهذا الاحتمال قد يكون الأقرب إلى الحقيقة. قاد الشيخ منصور الجهاد من ١٧٨٢ إلى ١٧٩١. وقع في الأسر في ١٧٩١، وتوفي في قلعة شلوسيلبورغ في ١٧٩٣.

وقد اختفت النقشبندية من القوقاز لربع قرن، ثم ظهرت مجدداً في شروان شرق منطقة ما وراء القوقاز. أول شيخ نقشبندي قام بالدعوة في القوقاز كان اسماعيل من كوردامير. وبواسطته يعود الاسناد من دون انقطاع، عبر معلمه الكردي الشيخ خالد من السليمانية والمرشدين النقشبنديين في الهند، إلى نصر الدين عبيد الله الأحرار، وإلى يعقوب شارخي، وإلى بهاء الدين نقشبند مؤسس الطريقة^(١). أما خلفاء الشيخ اسماعيل من مرشدي النقشبندية في القوقاز فكانوا:

(١) هنا السلسلة النقشبندية بحسب الشيخ جمال الدين من قاضي كوموخ في مؤلفه «الآداب =

- ١ - خاص محمد من شروان،
 - ٢ - محمد أفندي من ياراغلار الذي كان المرشد القوقازي الثاني الداعي إلى الجهاد، وكان من مريديه غازي محمد وشامل (وهما الإمام الأول والإمام الثالث لداغستان).
 - ٣ - سيد جمال الدين من قاضي كوموخ الذي هاجر إلى تركيا عقب الهزيمة النهائية للإمام شامل!
 - ٤ - عبد الرحمن من سوغراتل الذي كان مع ابنه الحاج محمد أحد قادة انتفاضة داغستان في ١٨٧٧، وقد فارق الدنيا في معسكر للاعتقال في سييريا؛
 - ٥ - الحاج محمد من سوغراتل ابن عبد الرحمن الذي شنقه الروس؛
- بعد وفاة الشيخ محمد، تَدَّرت النقشبندية وفقدت طابع المركزية الشديدة: تعدد المرشدون في داغستان وفي تشيتشينا، مما زاد لمصلحة الطريقة فرص الإفلات من حملات التنكيل البوليسية.

٢ - القادرية .

القادرية طريقة وفدت متأخرة إلى القوقاز. فقد أدخلت في الخمسينات من القرن التاسع عشر بفضل راعي كوميك هو كونتا حاجي كيشيف من قرية اليسخان يورشا التشيتشية واستناداً إلى الأسطورة، اطلع كونتا حاجي كيشيف على أصول الطريقة في بغداد على يدي مؤسسها عبد القادر الجيلاني نفسه، وذلك فيما كان ذاهباً إلى الحج في مكة.

وعرفت دعوته الزاهدة والشعبية إلى نبذ العنف والتي تصل إلى حد مسالمة

= المروية» وترجمته الروسية في «معطيات عن جبال القوقاز»، الجزء الثاني، تفليس ١٨٦٩، ص ١١. بهاء الدين نقشبند؛ محمد البخاري المسمى علاء الدين العطار؛ يعقوب شرقي؛ عبدالله السمرقندي المسمى خواجه أحرار؛ محمد الزاهي؛ درويش محمد؛ محمد الامكنجي؛ محمد الباقي بالله؛ أحمد فاروقي سرهندي؛ محمد معصوم؛ سيف الدين؛ سعيد نور محمد البدواني؛ عبيد الله من مرزجان؛ عبدالله من دهلي؛ خالد من سليمانية؛ اسماعيل من كوردامير؛ خاص محمد من شروان؛ محمد أفندي من ياراغلار - كورين؛ جمال الدين من قاضي كوموخ.

الكفار، نجاحاً هائلاً لدى الجبلين الذين انهكهم قرن من الكفاح المتواصل ضد الروس. إلا أنه كان من شدة قساوة الإدارة الروسية أن جعلت الطريقة الجديدة المعروفة في القوقاز باسم «كونتا حاجي»، تتحول قوة معارضة حقيقية. ونتيجة لنفي كونتا حاجي في ١٨٦٤، توفي في السجن بعد ٣ أعوام في ١٨٦٧. وقد تعرض مريدوه لمذبحة خلال مواجهة مع الجيش الروسي في تشيتشينا في ١٨٦٥ وأعلنت الطريقة خارجة على القانون. وبعيد وفاة مؤسسها، انقسمت الطريقة الى أربعة فروع (تسمى ورد في القوقاز):

- الفرع الرئيسي الذي ظل يحمل اسم «كونتا حاجي»، برز في تشيتشينا، وفي منطقة الأوسيت المسلمين، وفي منطقة الكاباردا، وفي شمال داغستان؛
- ورد بامات غيراي في بلاد التشيتشي والأنغوش اتخذ مركزاً له اول افتدارا في بلاد الأنغوش؛ القيادة الوراثية كانت مؤمنة بواسطة عائلة ميتاييف، في ضوء وفاة المؤسس محمد بامات غيراي حاجي ميتاييف في المنفى في سجن روسي؛
- ورد بطل حاجي في تشيتشينا اتخذ مركزاً أول سودهاهي؛ القيادة الوراثية تأمنت في عائلة بيلهوروي؛ المؤسس بطل حاجي بيلهوروي توفي في المنفى في سجن روسي. هذا الورد متشدد جدا يطبق مبادئ الجهاد على نحو صارم؛

- ورد شيم ميرزا من مئيرتوب في تشيتشينا، ويسمى اتباعها في الأدب السوفياتي «قارعو الطبول» كون ذكرهم يترافق مع قرع الطبول.

إلى هذه الأوراد، يضاف رابع تأسس في ١٩٥٤ عند التشيتشي المنفيين في كازاخستان:

ورد عويس حاجي الذي كان مرشده الأول عويس حاجي زاغيف، والذي سُمي أيضاً في الأدبيات الروسية «طريقة القلنسوات البيض» بسبب القلنسوة من هذا اللون الذي كان يعتمرها المريدون أثناء حلقات الذكر. وتعتبر الطريقة الأكثر شعبية، والأكثر زهداً، والأكثر جذرية سياسياً، بين الطرق الصوفية.

يسهل رسم تاريخ الصوفية القوقازية لكونه يتداخل مع تاريخ القوقاز

نفسها. وبالفعل، انفردت الطرق الصوفية منذ نهاية القرن الثامن عشر - انتفاضة الإمام منصور تعود إلى ١٧٨٢ - بقيادة حركة المقاومة للغزو الروسي، واستأثرت بها، وبعد هزيمة (الإمام) شامل ولدت الزعماء الذين لا منازع لهم على رأس الحركة الوطنية.

إن ما يسمى «المريديّة القوقازية» ليس شيئاً آخر سوى المقاومة الطويلة التي أبادها الجبليون للجيش الروسي من ١٨٢٤ إلى ١٨٥٦ في داغستان وتشيتشينا، والتي قادها النقشبديون. غازي محمد، وشامل وجميع نوابه، كانوا من اتباع النقشبندية. كذلك كانت انتفاضة ١٨٧٧ من صنع هذه الطريقة، علماً أن اتباع القادرية اضطلعوا فيها أيضاً بدور فعّال.

بعد انتكاسة الحركة اشتهر مريدو الطريقتين الذين واجهوا تنكياً بوليسياً شديداً، بظاهرة خاصة بشمال القوقاز هي «الإرهاب الديني» وتسمى حركة الأبريكس أو «قطاع الطرق لأجل الشرف» الذين يثارون للشرف الوطني. وهكذا نجد نماذج من الأبريكس في صفوف مشايخ النقشبندية^(١) والقادرية^(٢) على حد سواء.

عشية الثورة (١٩١٧) كان يمكن الوقوف على اختلافات بينة بين الطريقتين، وهي اختلافات استمرت حتى أيامنا هذه. فالنقشبندية أكثر «اريسوقراطية» وذهنية، ولديها قابلية أكبر للثورة المكشوفة (الجهاد المقدس)؛ وكان المريدون يأتونها في صورة خاصة من طبقة الأوزدي، فيما الشيوخ كانوا من المجتهدين المستعربين. أما القادرية، فكانت أكثر زهداً وتكيفاً مع السرية والعمل التأمري، وكان مريدوها ينتمون إلى الفئات الأفقر من السكان.

(٢) للمثال، في مطلع القرن، الشيخ ايلي - خان المرشد النقشبندي لتشيتشينا المتوفي في معتقل سيبيري، وخلفه ديني ارسانوف الذي قضى في القتال في ١٩١٧.

(٣) للمثال، الشيخ فارا الذي كان أول من خلف كونتا حاجي وقتل في المعركة في ١٨٦٧ في جبال تشيتشينا (أنظر أ. ايوليتوف، «طريقة الذكر الخاصة بمدينة اوشينيه وأتباعها في تشيتشينا» الواردة في «معطيات عن جبال القوقاز...»، المصدر المذكور هو مصدرنا الوحيد في شأن أصول القادرية في القوقاز).

وفضلاً عن المهدفين العسكريين اللذين كانت الطرق تسعى إليهما، يجب التشديد على ظاهرتين أخريين، ربما تتسمان بأهمية أكبر، وهما: (١) أسلمة شمال القوقاز: بفضل النشاط التبشيري للطريقتين، اعتنقت الإسلام قبائل الشركس الغربية (الانجاز على الأخص) والأنغوش؛ الشركس على أيدي النقشبنديين بتوجيه من محمد أمين نائب الإمام شامل، والأنغوش على أيدي القادرين؛ آخر أوول وثني الجيتي اعتنق الإسلام في ١٨٦٥. ٢) تعزيز الحكم الشرعي: الإمام شامل اجتث كل العناصر التي كانت قبل ١٨٢٤ تضي على الإسلام القوقازي طابعاً مشوباً بالوثنية، وطهره من العادات المحلية، وطبق الشريعة نظاماً شاملاً.

حاول النقشبنديون إبان الثورة والحرب الأهلية، في الأعوام ١٩١٨ - ١٩٢٣، فصل القوقاز عن روسيا عن طريق انشاء دولة دينية في داغستان. وهم قاتلوا طوال ١٠ أعوام على جهات عدة، أولاً ضد الجيوش البيض لدينيين، ثم ضد البلاشفة، وزعماء الانتفاضة الكبرى المناهضة للسوفيات والتي أدمت داغستان من ١٩٢٠ إلى ١٩٢٣، كانوا جميعاً من النقشبنديين.^(٤) وقضى معظم هؤلاء في الكفاح أو أعدموا خلال حملة القمع الطويلة التي أُلقت بثقلها على شمال القوقاز في ١٩٢٣ واستمرت حتى ١٩٢٦^(٥). وقد امتنع القادريون عن المشاركة في الانتفاضة.

والغريب أنه عوض أن تقصم الطرق الصوفية، أعطت حملة القمع زخماً جديداً لحركتها. وهكذا، كان لا يزال ممكناً في ١٩٢٦ احصاء ٦١٢٠٠ مريد في داغستان (لا سيما نقشبنديون) و١٩ شيخاً و٦٠ وكيلاً، و٦٠ ألف مريد و٣٨

(٤) الإمام نجم الدين من هاتسو، والمشايق أوزون حاجي من سالتى، ومحمد البلخاني الذي قاد جيوش الثائرين، ودرويش محمد من آندي، وإبراهيم حاجي من كوشري، وسيد أمين من انسالتا، وسراج الدين دهجي من جيمري...

(٥) بين الضحايا التي قضت إعداماً على أيدي السوفيات، علي ميتاييف مرشد طريقة بامآت غيراي حاجي، والشيخ صلصا يانداروف المرشد النقشبندي لتشيشتينا، والشيخ علي من اكوشا زعيم النقشبندية في داغستان الوسطى، الخ.

شيخاً^(٦) (معظمهم من القادريين) في جمهورية تشيتشينا - انغوشيا (كان عدد السكان لا يتجاوز ٤٠٠ ألف شخص) و ٢٠٠٠ مرید (قادريون؟) في الكاباردا.

وفي ١٩٢٨ بدأت حملة تصفية جديدة في شمال القوقاز استهدفت العناصر الدينية، وأثارت انتفاضة جديدة في تشيتشينا. وقاتلت الطريقتان جنباً إلى جنب، لكن القادريين كان لهم الدور الغالب^(٧).

وإن حركة التمرد التي حطمت في ١٩٣٦، ما لبثت أن انفجرت بعنف استثنائي في شتاء ١٩٤٠. وكان يقودها هذه المرة زعماء قوميون (بل قياديون شيوعيون محليون من أمثال مثير بك شابировف)، لكن أتباع القادرية اضطلعوا فيها بدور فاعل. وقد تم إبعاد جميع السكان المسلمين الذين اتهموا إجمالاً بالتعاون مع العدو إلى سيبيريا وكازاخستان كتدبير انتقامي، كما ألغيت الجمهورية (في الحقيقة بدأت حركة التمرد فيها كانت الجيوش الألمانية على بعد آلاف الكيلومترات، ولم تبلغ هذه الجيوش أبداً تشيتشينا)^(٨).

إن الأمر ينطوي على دلالة أن يكون الصوفيون (القادريون) صمدوا في الجبال حتى ١٩٤٧^(٩). في ١٩٨١ عمدت مجلة Zurnalist الموسكوبية (العدد الأول لعام ١٩٨١) إلى رواية تفاصيل سقوط آخر ابريكو في المعركة حديثاً،

(٦) بحسب أفكسيتيف، «الإسلام في شمال القوقاز»، ستافروبول، ١٩٧٣، ص ٦٢، وم. ز. ماغوميمدوف «معالجة مسائل تاريخية وقومية ودينية لشمال القوقاز»، مجلة مسائل الإلحاد العلمي، موسكو، العدد الرابع عشر، ١٩٧٣، ص ٤٧.

(٧) الشيخ ارسانو كوي من جيرمينشيك الذي يمثل المرجع الأعلى للنقشبندية في تشيتشينا، كان أحد قادة الانتفاضة وقتل خلال المعركة.

(٨) اضطلعت فيها طريقة بطل حاجي بدور بارز؛ ٥ من الأولاد الستة لبطل بلهوروييف مؤسس الفرع، و ٨ من احفاده اعدموا خلال التمرد، فضلاً عن الكثير من أبناء اخوته وأبناء أعمامه وأصهرته (راجع أ. م. توتاييف، «ضد جور المشيعين»، غروزنييه، ١٩٧٥، ص ص ٧-٩.

(٩) قریش بلهوروييف آخر أبناء مؤسس طريقة بطل حاجي، لم تتمكن القوات السوفياتية من أسره الا في ١٩٤٧. قاد حرب الغوار في الإدغال على رأس مریدیة طوال ٤ أعوام. حكم بالسجن ١٠ سنوات في معسكر للعمل، وأطلق في ١٩٥٧ وعاد إلى تشيتشينا قبل جميع المنفيين الآخرين.

والأرجح أنه ينتمي إلى طريقة بطل حاجي^(١٠). وكان الجبليون المبعدون عادوا إلى موطنهم الأصلي بعد ١٩٥٨.

من زاوية تاريخ الطرق الصوفية، أسفرت عملية الإبعاد عن نتيجة مزدوجة: انغراس القادرية في آسيا الوسطى، وتعزيز سلطان الطرق على مجمل السكان المسلمين لتحويلها مركزاً للحياة الوطنية في المنفى.

II - الوضع الراهن

تعتبر الطرق في الاتحاد السوفياتي - وتالياً في القوقاز - منظمات غير قانونية، مع أنها ليست سرية كلياً لكون بعضها يعمل في وضوح النهار إلى حد ما. وعدم شرعية هذه الجمعيات مردها أولاً مخالفة التشريع السوفياتي في شأن المنظمات الدينية الذي يقضي بأن تكون كلها مسجلة رسمياً؛ ثم لكون أعضاء الطرق «المتفرغين» يصنفون من «الطفيليين» والعناصر «المعادية للمجتمع». ودأبت السلطات السوفياتية على إدراج بعض الطرق (بطل حاجي وويس حاجي) بين «المنظمات الارهابية». لذلك لا يوجد أي مصدر مدون عن الطرق، وليس لدينا سوى إشارة واحدة إلى البيان الصوفي: الطرق في تشيتشينا تعمد إلى استنساخ القرآن بخط اليد.

كل معارفنا في شأن الصوفية في القوقاز مصدرها سوفياتي، ويمكن تصنيفها ٥ مجموعات:

- ١ - الأدبيات المعادية للدين والتي تتميز بالغازاة (خصوصاً بالروسية) وتنتشر في غروزنييه (جمهورية تشيتشينا - أنغوشيا) وفي ماخاتش كلا (داغستان). وتدور كلها على خطر الصوفية.
- ٢ - «دراسات علم الاجتماع الديني» الكثيرة والمثيرة للاهتمام والتي شرع في نشرها في ١٩٧٠. موضوعية ولا تتضمن عناصر دعائية.

(١٠) د. بيزوغليه، «سبوجي بوشكا»، مجلة جورناليس، العدد الأول، ١٩٨١، ص ٤٦ - ٤٨. الأبريك الذي كان يعمل وحيداً يتحمل على ما يبدو مسؤولية قتل أكثر من ٤٠ شيوعياً وناشطاً في منظمة الشبيبة الشيوعية. وأمكن له البقاء على قيد الحياة بفضل حماية السكان.

- ٣ - الصحافة اليومية المحلية مثل «باكينسكية رابوتشي» الصادرة في باكو. أما الصحافة اليومية للجمهوريات ذات الحكم الذاتي (تشيتشينا انغوشيا، داغستان) فلا يمكن الحصول عليها في الغرب (داغستانسكفا برافدا، غروزنيسكيه رابوتشي).
- ٤ - تصريحات المسؤولين السوفيات على سبيل المثال، تصريحات للجنرال ضياء يوسف زاده رئيس جهاز الاستخبارات «ك.ج.ب» في القوقاز، نقلتها صحيفة «باكينسكية رابوتشي» في ١٩ كانون الأول ١٩٨٠ وتدني النشاط الإجرامي لـ «المتشيعين» و«الكهنوت غير المسجل» (تعابير تشير في الأدبيات السوفياتية إلى مريدي الطرق) وتعاونهم مع الإمبريالية.
- ٥ - الاتصالات الشخصية مع المسلمين السوفيات في أثناء سفرهم إلى الخارج. هذه الاتصالات تبدو متوفرة وسهلة أكثر في الولايات المتحدة منها في أوروبا. القوقازيون على وجه الخصوص، يتحدثون بطيبة خاطر عن الصوفية (نظراً إلى تقليدها البطولي...). أما في الإتحاد السوفياتي، فيستحيل إجراء أي محادثة تتعلق بالطرق: الأفواه تنغلق فوراً كما هي الحال في موضوع تروتسكي...

التوزع الجغرافي

النقشبندية هي السائدة في الشطر الشمالي الجبلي من داغستان (بلاد الأفار والدارغين واللاك)، وفي بلاد التشيتشي^(١١)، وفي شمال أذربيجان. لكنها ضعيفة في السهول الواقعة في سفوح الجبال (بلاد الكوميك) وفي جنوب داغستان (بلاد اللزقيين). ويطلق على النقشبنديين في الأدبيات السوفياتية اسم «الهامسين» لأدائهم الذكر الخفي.

(١١) لا سيما في بلاد التشيتشي أعمال ف.ج. بيفوفاروف (الحياة والثقافة والتقاليد القومية السائدة لدى شعب تشيتشينا - انغوشيا ذات الحكم الذاتي، غروزنيه، ١٩٧١، ومراحل البحث السوسولوجي، غروزنيه، ١٩٧١). بالنسبة إلى داغستان، أ.أ. ماكاتوف، «الإسلام، المؤمنون، الحدائة. تجربة الدراسة الملموسة السوسولوجية للإسلام»، ماخاتش كلا، ١٩٧٤.

أما القادرية الأكثر حيوية فانها الغالبة في تشيتشينا - أنغوشيا وتتقدم نحو الغرب في بلاد الأوسيت والكاباردا والكاراتشاي . كذلك نحو الجنوب في شمال اذربيجان . ويسمى القادريون في الأدب الروسي والسوفيياتي في غالب الأحيان «أصحاب الذكر» بسبب ذكرهم الجلي، كما يسمون أيضاً «الوثابين» .

ويبدو أن الطرق اختفت من الجزء الغربي لشمال القوقاز الذي اصطبغ بطابع الصوفية في زمن شامل (منذ هجرة القبائل الشركسية في ١٨٦٥) .

الأهمية العددية

هي مفارقة أن تكون الطرق الآن أقوى مما كانت قبل الثورة، إذا قيست بالأعداد المطلقة والنسب . والأرجح أنها أكثر نفوذاً منها في البلاد المجاورة مثل تركيا والشرق الأوسط العربي .

ويقول مصدر تشيتشي في ١٩٧٩^(١٢) أن ٥١ في المئة من الشبان المسلمين المؤمنين ينتظمون في طريقة صوفية . وتصير هذه النسبة أكبر لدى الأشخاص الأكبر سناً . الواقع بحسب التحقيقات السوسولوجية الأخيرة، أن عدد المؤمنين اقتناعاً أو تقليداً يراوح ما بين ٥٠ و ٦٠ في المئة (قياساً إلى العدد الإجمالي للمسلمين الذي يقدر بنحو مليون)، مما يجعل عدد المريدين ٢٥٠ ألفاً كحد أدنى: قبل الثورة كان عدد المسلمين يقدر بنحو ٦٠ ألفاً . ويرجح أن نسبة المريدين مرتفعة جداً في داغستان أيضاً .

وهكذا يصل العدد الإجمالي للمريدين في القوقاز إلى رقم نصف مليون الخارق!

ليس لدينا الكثير من المعلومات في شأن التركيب الاجتماعي للطرق، لكن يبدو استناداً إلى تحقيق حديث، أن ٣٦ في المئة من المريدين التحقوا بطريقة على

(١٢) «السمات الدينية ومسائل التربية الإلحادية»، غروزنيه، ١٩٧٩، ص ٥١ . ف.ج. بيفوفاروف (مراحل البحث السوسولوجي... مصدر مذكور، ص ٣١٦) يجزم عندما يقول ان «أكثر من نصف المؤمنين هم من اتباع طريقة» .

أساس تقليد عائلي (لأن أهلهم كانوا سابقاً من المريدين)؛ وأن ٣٢ في المئة صاروا مريدين بقرار شخصي أو تلبية لحاجة روحية، أو اجتذبتهم المتعة الجمالية في نشاط الطرق - المصادر السوفياتية عموماً تشدد على النقطة الأخيرة. أما الـ ٣٢ في المئة الآخرون فقد رفضوا الإجابة^(١٣). يضاف إلى أن الطرق باتت أكثر رسوخاً في المدن وفي صفوف المثقفين (بعدها كانت قبل الثورة تشكيلات ريفية صرفة).

بنية الطرق

هناك بعض السمات الخاصة التي تميز الطرق في القوقاز. في الدرجة الأولى، تمكن ملاحظة التمازج المطلق بين الطرق (كل الطرق) والبنية العشائرية التي لا تزال حية عند التشيتشي والأنغوش والداغستانيين.

إن الخلية الأساسية للمجتمع في شمال القوقاز هي التايب (أحد فروع العشيرة) الذي كان أعضاؤه في الماضي ملزمين بعادة الثأر، والذي كانت حياته بأدق تفاصيلها تضبط من مجلس للشيوخ («اللحي البيضاء») ومحكمة عشائرية (تايانان ككهيل). ولا يزال للتايب حتى الآن مقبرته الخاصة ومكانه الخاص بالصلاة الذي يقوم عموماً في بيت أحد الصوفيين. وفي الماضي كان أعضاء التايب يلتزمون قواعد الزواج اللحي. وصار التايب اليوم قاعدة التنظيمات الصوفية التي تقصر منذ الثورة عملية استقطاب مريديها على عشائر محددة. بذلك تلقى على المريدين مسؤولية ولاء مزدوج: تجاه عشيرتهم وتجاه الطريقة، مما يوفر للتنظيمات الصوفية حماية أفضل في مواجهة الملاحقات البوليسية المحتملة.

وفي هذا الشأن كتب مؤلف من التشيتشي: «خلال السنين العشرين والثلاثين الماضية، طرأت على المريديّة تغييرات كبيرة في تشيتشينا، أنغوشيا. بحيث وجدت الشكل الملائم الأكثر للعالم المعاصر، وهو الجماعة المريديّة الصغيرة التي تضم عدداً من العائلات المتصاهرة في القرية عينها. الزعيم الديني

(١٣) بيفاروف، «الحياة والثقافة...» مصدر مذكور، ص ٣١٨.

لهذه الجماعة هو الملائ، وإذا تعذر وجوده، من هو قادر على القيام بواجبات الملايين المريدين الأكثر نشاطاً. وترتبط كل جماعة بطريقة، ومرجعيتها السلطة الروحية للمؤسس؛ لكن لم تعد هناك صلات رسمية بين المجموعات المختلفة المنبثقة من مؤسس واحد [. . .] اليوم، الحياة الدينية كلها، تدور في إطار الجماعة المريديّة الصغيرة الشاملة، وهذه قمة المفارقة، أعضاء «في الحزب الشيوعي والإدارة السوفياتية. الإخلاص للعشيرة يبدو أقوى من النظام الحزبي»^(١٤). س. عمروف يصف هنا حلقة ذكر نقشبندية في بلدة تشيتشيه يشارك فيها جميع أبناء العشيرة بمن فيهم الوجهاء المحليون.

الخلاصة أن بعض الطرق المسماة «ليبرالية» في الأدبيات السوفياتية، خصوصاً النقشبندية، «منفتحة على العصر في صورة واسعة» والانتساب إليها ممكن للجميع، بما في ذلك أعضاء الحزب الشيوعي: «يكفي أن يبقى المرء وفيّاً في أعماق قلبه، لكن يكفي أيضاً القبول بنظام انضباط الطريقة».

هناك طرق أخرى تدينها الأدبيات السوفياتية باعتبارها «طهرية» و«متعصبة» و«رجعية»، وهذا ينطبق على ويس حاجي وبطل حاجي. وهاتان الطريقتان تتحولان جمعيتين سريتين حقاً وتغلقتان حتى تجاه المسلمين الآخرين، على رغم كونها الأكثر شعبية الآن. ويمارس مريدهما الزواج اللحمي، ويمتنعون عن إرسال أولادهم إلى المدارس، ويرفضون الخدمة العسكرية؛ وبعض هؤلاء يتجنّبون حمل أسماء أولادهم إلى سجل الأحوال الشخصية^(١٥). كما يحاولون أيضاً التمايز (أعضاء ويس حاجي على وجه الخصوص) بارتداء لباس خاص وترتيب اللحية بطريقة مختلفة.

والنقشبندية بعيدة جداً عن المركزية: ليس لديها سلطة مركزية ولا سلطة اقليمية، ولدى كل مجموعة (قرية أو حي في مدينة) استقلالها. الطقوس وحدها

(١٤) س. عمروف، «المريديّة عن قرب»، مجلة العلم والدين، العدد العاشر، ١٩٧٩، ص ص

٣٠-٣٢.

(١٥) م. ف. فاغابوف، «الإسلام والعائلة»، موسكو، ١٩٨٠، ص ١٤٣.

هي نفسها بالنسبة إلى الجميع. لكن يبدو أن ثمة اتصالات سرية بين المجموعات النقشبندية المختلفة، وحتى بين النقشبنديين والقادرين، وهي اتصالات يصفها كاتب سوفياتي بأنها «نواة فيديريالية». وتجري الاتصالات عادة، في مناسبة تشييع شخصيات صوفية، سعياً إلى تحديد استراتيجيات روحية (بل سياسية) مشتركة^(١٦).

وخلافاً للنقشبندية، تتميز فروع القادرية بتراتبية شديدة ومرتبة الشيخ وراثية في ايراد بطل حاجي وبامات غيراي حاجي، كذلك ويس حاجي على ما يبدو. وترتبط بالشيخ شبكة واسعة من المراتب التنفيذية: وكيل، تامادا (في كل قرية) وتورخو (حامل الأوامر).

ونشأت ظاهرة جديدة منذ الثورة ما لبثت أن غيرت تدرجياً طابع الطرق: إدخال عدد متزايد من النساء، وحتى النساء - الشيخوخ.

الممارسات الدينية

تظل حلقة الذكر الجزء الأساسي من الطقوس الاحتفالي الصوفي. وهي خفية أو قلبية عند النقشبنديين، وجليّة عند القادرين، ويرافقها قرع الطبول في ورد سيم ميرزا، والعزف على الكمان عند ويس حاجي. وحلقة الذكر اسبوعية، من حيث المبدأ، لكن قد تنعقد أيضاً في كل مناسبة: دينية بالنسبة إلى الأعياد، عائلية بالنسبة إلى المآتم والولادات، أو اجتماعية مثل الذهاب إلى الخدمة العسكرية.

وصار الذكر في الطريقتين احتفالاً طويلاً يدوم ما بين ٤ و ٥ ساعات، بل أكثر من ذلك، ويشمل التأمل والإنشاد وتلاوة روايات دينية أو سياسية، ما يعتبر توليفاً بين حلقة الذكر التقليدية والتمثيل المسرحي والاستقبال العائلي. ومع مرور الوقت وبتأثير من القادرين، أدخل النقشبنديون الإنشاد في حلقة

(١٦) ه.هـ. بوكوف، «هجوم الملحدين»، غروزنيه، ١٩٦٨، ص ٤٤. «شهد فيديريالية حقيقية للفرق».

الذكر. ويميل الطقسان الاحتفاليان اليوم إلى التقارب. وترعى الطرق دوراً للعبادة سرية وشبكات من المدارس السرية تلقن فيها العربية ومبادئ الدين. ويتمحور نشاط الطرق حول الأماكن المقدسة التي تعمد السلطات باستمرار إلى اغلاقها، لكن يعاود فتحها بعد قليل. وهذه الأماكن بمثابة مساجد سرية ومراكز للتجمع أو مراكز لنشر الدعوة، لكنها أيضاً بديل من الحج. وبحسب التقديرات التي تقدمها المصادر السوفياتية، تبدو الأرقام مختلفة، لكن في داغستان وحدها يمكن إحصاء أكثر من ١٠٠ مكان مقدس (مزار، بير) مهم ومئات عدة من الأماكن المقدسة الثانوية. وأشهر هذه الأماكن أضرحة الشيوخ المتصوفين الذين قضوا وهم يقاتلون الروس. ومنها أضرحة والدة كونتا حاجي (الذي توفي في المنفى)، واوزون حاجي (الأكثر شعبية) وعبد الرحمن من سوغراتل، ومحمد بلخاني (الذي قاد الثوار في ١٩٢٠ ودمر فرقة للجيش الأحمر في مضيق اراكان)، وكثيرون غيرهم... ويمكن القول إن التعبير الأبرز عن الإيمان الشعبي في القوقاز، هو الحج إلى هذه الأماكن المقدسة.

وتكشف نشاطات الطرق في القوقاز مزيجاً نادراً من التقليدية الصارمة في الجوهر، والحداثة التقنية في الظاهر. ذلك ان غالباً ما يلجأون إلى استخدام أشرطة التسجيل الكاسيت لإعادة نشر الخطب وتلاوات القرآن التي تلتقط في غالب الأحيان من برامج اذاعات أجنبية، خصوصاً اذاعات الخليج القوية جداً والتي لا يمكن تشويشها.

وليس من علاقات بين الطرق والإسلام الرسمي في شمال القوقاز المتمثل في المديرية الروحية الإسلامية لداغستان في بويناكسك.

واذ يتجاهل زعماء الطرق الإسلام الرسمي، يكتفي هذا الإسلام باصدار فتاوى معتدلة نسبياً ضد الحج إلى الأماكن المقدسة، وضد وجود النساء في حلقات الذكر، على رغم ضغوط السلطات السوفياتية. ويبدو أن ثمة اتفاقاً، ضمنياً بين الإسلاميين - «الإسلام الرسمي» و«الإسلام الموازي» - لتفادي القطيعة بل حتى النزاع، مع أن الدعاية المناهضة للدين تحمل بعنف على الطرق محاولة تصويرها «طوائف» شاذة.

أخيراً، يؤدي المريدون نشاطاً تبشيراً دائماً وكثيفاً. وتصنّف كل المصادر السوفياتية المريدون بين «المتعصمين المتزمتين» الذين يسعون إلى فرض أفكارهم على الآخرين (تستند للمقارنة إلى الخبراء في التحريض والدعاية). وهكذا نشهد في القوقاز «سباقاً» بين أبواق الإلحاد الرسمي ودعاة الإسلام الأصولي. ويعتقد مؤلف سوفياتي من التشيتشي^(١٧) ان في جمهورية تشيتشينا ما يراوح بين ٩ و ١٠ آلاف من موظفي الدعاية المتفرغين كلياً للعمل، في مقابل ما يراوح بين ٢٠٠ و ٢٥٠ ألف مريد صوفي... الأولون لا يرجحون الكفة.

الدور السياسي

تشكلت الطرق كجماعات مغلقة، لاعتبارها منظمات غير شرعية. وهي تملك خزانها الخاصة بفضل الزكاة (يحظرها القانون السوفياتي)؛ ومحاكمها الخاصة التي تجرف الأحكام الصادرة عنها تلك التي تصدرها المحاكم السوفياتية^(١٨). (على ذمة المصادر السوفياتية)؛ ومجموعاتها الدفاعية الخاصة؛ ويذهب السوفيات إلى أن أتباع طريقة بطل حاجي ينفذون حكم الإعدام في المرتدين (؟).

كذلك يفيد السوفيات أن بعض الطرق، لا سيما طريقتنا ويس حاجي وبطل حاجي، يمارس الجريمة كونه يلجأ إلى الإرهاب المنظم ضد أعضاء الحزب الشيوعي.

قد تكون هناك مبالغة في هذا الشأن، لكن ثمة جانب يعبر بالتأكيد عن الحقيقة. فالطرق كلها، بما فيها النقشبندية التي يمكن اعتبارها أكثر اعتدالاً، تصنف بين «العناصر المعادية للسوفيات، المعادية للروس، المعادية للشيوعيين، والمناهضة للمجتمع والمنحطة...» اين الحقيقة في كل هذا؟ هناك تقليد

(١٧) المصدر نفسه.

(١٨) أنظر م. أ. ماماكايف (العرق التشيتشي ومرحلة تفككه، غروزنيه، ١٩٧٣) الذي يكتب: «في غالب الأحيان تلغي قرارات المحاكم السرية، الأحكام الصادرة عن المحاكم السوفياتية وتستبدلها».

قوقازي قديم يقول بأن السعي إلى الله يبدأ بالجهاد المقدس ضد الكفار، وكذلك ضد المسلمين السيئين الذين يخدمونهم. والصحيح - وهنا يمكننا تأكيد صدق المصادر السوفياتية - ان الطرق في القوقاز نجحت في خلق مناخ من عدم التسامح والعداء حول «الملحدين» المحليين القلائل (أقل من ٢٠ في المئة من السكان المسلمين) يجبر هؤلاء الملحدين على «إخفاء مشاعرهم» بل حتى الهجرة. (بعد ٧٠ عاماً على قيام الثورة!).

خاتمة: الدور التاريخي للطرق

في المقام الأول، ان الطرق صانت الإسلام المهدد بخطرین: الجهل واللامبالاة في الحقل الديني، بل الإلحاد والعودة إلى الشامانية؛ وقد حفظت الحكم الشرعي الصارم وتؤمن استمراره. وأفضل مثال، تشيتشينا التي هي معقل الإسلام الأنقى باعتراف مصادر سوفياتية. والمفارقة أن هذه البلاد لم تشهد من ١٩٤٣ إلى ١٩٧٨ افتتاح مسجد رسمي واحد. ويكون الإسلام تمكن من البقاء بفضل الطرق وحدها^(١٩).

ثانياً، ساهمت الطرق في صون النزعة الوطنية القوقازية، عندما صارت المركز الوحيد للحياة الوطنية للمنفيين طوال سنوات الإبعاد.

ويعتبر المسلمون أن الطرق وحدها حافظت على التقليد الوطني (تقليد شامل) وعلى الثقافة الوطنية^(٢٠) أيضاً.

(١٩) أنظر م.م. مصطفىوف (أهل الذكر وجوهرهم الاجتماعي، غروزنيه، ١٩٧١) الذي يقدم أمثلة جميلة عن قصائد صوفية حديثة (مترجمة إلى الروسية عن التشيتشنية) لا مجال للمقارنة بينها وبين الأدب الرسمي («حب الجرار» أو «قصائد إلى ليونيد»).

(٢٠) أنظر ضياء يوسف زاده في «باكينسكي رابوتشي»، ١٩ كانون الأول ١٩٨٠.